الباب الثاني

البلاغة القرآنيّة الجديدة

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأوّل

البناء الجديد للصورة القرآنيّة

لم يتوقّف أمر التجديد في التعبير القرآنيّ عند حدود اللغة، بل تجاوزها إلى فنون البلاغة، فأدخل القرآن على قواعد الصورة والعلاقةِ بين أطرافها أبعاداً لم تكن معروفةً من قبل، وأوجد من الفنون البيانيّة ما لا قِبَلَ للعرب به، وما لم يستطيعوا تقليده في شعرهم أو نثرهم بعد ذلك أبداً.

والصورة أمرٌ أساسيٌّ في الشعر، فإذا فقدها كاد أن يفقد شعريّته. ولأنّ القرآن جاء حافلاً بالصور الفنّية الجديدة كان ذلك أحد الأسباب الهامّة التي دفعت المشركين إلى وصفه بالشعر، وإلى وصف الرسول ﷺ بأنّه شاعر.

سيطرة الصورة الجاهليّة على الشعر:

كانت الصور البيانيّة تتردّد هي نفسها عند الشعراء العرب قبل الإسلام، فما أن تُعجِب أحدَهم صورةُ صاحبه حتى يعمد إليها فيعيد صياغتها ويصبّها في قالَبٍ شعريٍّ جديد، بل ربّما حافظ عليها كما كانت في قالبها الأوّل.

وقد استمرّ هذا التأثير الجاهليّ في الخطّ الشعريّ العربيّ قروناً عديدةً بعد ذلك، وربّما تسرّب إلى بعض الشعراء والكتّاب المعاصرين، بل إلى العامّة من الناس في أحاديثهم وصورهم.

فمدائحهم لملوكهم وأمرائهم، وما يَصدر عن خيالاتهم في وصفهم لهؤلاء من تشبيهاتٍ واستعارات، ووصفهم للحبيبة وتشبيهاتُهم لأعضائها، وكذلك وصفهم للطبيعة بعناصرها المختلفة، من جمادٍ أو حيوانٍ أو نبات، وما فجّرت هذه العناصر في خيالاتهم من صور، كلّ ذلك كوّن للعربيّة قاموساً

من الصور البيانيّة قلّ أن خرج عنه الشعراء أو أضافوا إليه مادّةً جديدة.

وكانت هذه الصور مستمَدّةً من البيئة العربيّة المحدودة، فالشجاع أسدٌ، والجبان نعامةٌ، والكريم بحرٌ، والبخيل أرضٌ مجدِبةٌ، والحَقود جملٌ، والأكول فيلٌ، والرزين جبلٌ، والجميل شمسٌ أو قمرٌ، والرفيع نجمٌ، والذليل وتِدٌ، والطائش فَراشٌ، والوديع حَمَلٌ، واللَّجوج خُنفَساء، والمزهوّ طاووسٌ، والمراوغ ثعلبٌ، والقاسي حديدٌ أو صخرٌ، والشَّعر ليلٌ، والشَّيب نهارٌ، وأسنان الحبيب بَرَدٌ، وفمه خاتمٌ أو أقحوانٌ، وشفاهه عقيقٌ، وخدوده وردٌ أو تفّاحٌ، ودموعه لؤلؤٌ، وأنامله عُنّابٌ، وعيونه نَرجسٌ، وقدّه رمحٌ، وثغره أقحوانٌ، وجبينه صباحٌ، وحواجبه قِسيٌّ، وسوالفه عقارب أو صَوالج... إلخ.

القاموس القرآنيّ الجديد للصور:

لقد تجاوز القرآن الكريم هذه الصور الكثيرة المتوارَثة فأهملها وأسقطها من مخزونه التعبيريّ، ثمّ جاء بقاموسه البيانيّ الخاصّ المفعم بالصور الجديدة. ومع أنّني لم أقم بدراسة شاملة تمسح الصور القرآنيّة بكاملها؛ أكاد أجزم، من خلال مسحي للآيات التي درستها في مختلف جوانب هذا البحث، بأنّ البركان البلاغيّ للقرآن الكريم لم يقتصر على إيجاد خزّانٍ تصويريٍّ جديدٍ ضخم ومحيِّرٍ أضافه إلى قاموسنا الخياليّ أو البلاغيّ، بل جاء بما هو أعظم من ذلك حين هجر تماماً، كما فعل بالسبائك اللغويّة التقليديّة، كلّ الصور البيانيّة، المشهور المتداول منها وغير المشهور، تلك التي نجدها مبثوثةً في تراثنا الشعريّ الضخم قبل الإسلام، فلا نكاد نعثر، بل لا نعثر مطلقاً، على أيٍّ منها في القرآن الكريم.

والأهمّ من ذلك كلّه، على أهمّية ما ذكرنا وخطورته، أنّ القرآن قد أحدث ثورةً أساسيّةً في البناء الفنّيّ للصورة التقليديّة، ففاجأ العرب بأنواعٍ من العلاقات المتطوّرة والبعيدة والمتنوّعة بين الأطراف التي تتكوّن منها الصورة، تلك التي تجاوزت عصرها بمسافاتٍ شاسعة.

فبعد أن كانت الصور محدودة النوعيّة، محدودة العدد، محدودة الخيال،

محدودة العلاقات بين أطرافها، وتكاد تقتصر على الشعر دون النثر، خرج القرآن عن هذه الحدود جميعاً، فلا الصور هي الصور، ولا أبعادها هي الأبعاد، ولا أطرافها هي الأطراف، فدخل بالخيال العربيّ حِقبةً جديدة، ووضع العرب مرّةً واحدةً أمام عالمٍ كاملٍ من الصور لم يعرفها شعرهم ولا نثرهم بهذه الأبعاد والأطراف والعلاقات الجديدة.

وحاولوا أن تستمتعوا معي ببطءٍ، وتتمَلَّوا بخيالكم وأذواقكم وأحاسيسكم كلّ صورةٍ من الصور القرآنيّة التالية، لتجدوا أنّ معظمها ممّا لا يمكن لقواعدنا البلاغيّة التقليديّة أن تحيط بأبعاده، أو أن تسمح لنا بالاستناد إليها في تحليله:

- ﴿فما أصبَرَهمْ على النار﴾ [البقرة: 175]
- ﴿هُنّ لباسٌ لكمْ وأنتم لباسٌ لهنّ﴾ [البقرة: 187]
- ﴿ويسألونكَ ماذا يُنفقون قُلِ العَفْوَ﴾ [البقرة: 219]
- ﴿نساؤكمْ حَرْثٌ لكم فأْتُوا حَرْثَكم أنَّى شئتُم﴾ [البقرة: 223]
- ﴿ولستمْ بآخِذيهِ إلّا أنْ تُغمِضوا فيه﴾ [البقرة: 267]
- ﴿ضُرِبَتْ عليهِمُ الذِلَّةُ أينَ ما ثُقِفوا إلّا بحَبْلٍ من اللهِ وحَبْلٍ منَ الناس﴾ [آل عمران: 112]
- ﴿فلا تَميلوا كلَّ المَيلِ فتذَروها كالمعلَّقة﴾ [النساء: 129]
- ﴿مُذَبذَبين بينَ ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ [النساء: 143]
- ﴿فمَثَلُه كمَثَلِ الكلبِ إن تَحمِلْ عليه يَلهَثْ أو تترُكْه يَلهَثْ﴾ [الأعراف: 176]
- ﴿وتَوَدُّون أنّ غيرَ ذاتِ الشَّوكةِ تكونُ لكم﴾ [الأنفال: 7]
- ﴿واعلموا أنّ اللهَ يَحُولُ بينَ المرءِ وقلبِه وأنّه إليه تُحشَرون﴾ [الأنفال: 24]
- ﴿ولا تَنازَعوا فتفشلوا وتَذهبَ ريحُكمْ﴾ [الأنفال: 46]
- ﴿وإذْ زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهم﴾ [الأنفال: 48]
- ﴿وإنْ جَنَحوا للسَّلْمِ فاجنَحْ لها وتوكَّلْ على الله﴾ [الأنفال: 61]
- ﴿يُرضونكم بأفواهِهم وتأبَى قلوبُهم﴾ [التوبة: 8]

- ﴿وأموالٌ اقترفتُموها﴾ [التوبة: 24]
- ﴿وجَعلَ كلمةَ الذينَ كفَروا السُّفلَى وكلمةُ اللهِ هي العُليا﴾ [التوبة: 40]
- ﴿وارتابتْ قلوبُهمْ فهم في رَيبِهم يتردّدون﴾ [التوبة: 45]
- ﴿وخُضْتُمْ كالذي خاضوا﴾ [التوبة: 69]
- ﴿ أولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهم﴾ [التوبة: 69]
- ﴿وطُبعَ على قلوبِهم﴾ [التوبة: 87]
- ﴿حتّى إذا أَخذتِ الأرضُ زُخرُفَها وازّيّنتْ وظَنَّ أهلُها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً﴾ [يونس: 24]
- ﴿ثمّ يأتي مِن بَعدِ ذلك سبعٌ شِدادٌ يأكُلْن ما قدّمتمْ لهنّ﴾ [يوسف: 48]
- ﴿غاشيةٌ مِن عذابِ الله﴾ [يوسف: 107]
- ﴿قُلْ كُونوا حِجارةً أو حديداً. أو خَلْقاً ممّا يَكبُرُ في صُدورِكم﴾ [الإسراء: 50 – 51]
- ﴿وقُلْ جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنّ الباطلَ كان زَهوقا﴾ [الإسراء: 81]
- ﴿ولا تَجعَلْ يَدَكَ مَغلولةً إلى عُنُقِك﴾ [الإسراء: 29]
- ﴿واشتعلَ الرأسُ شَيباً﴾ [مريم: 4]
- ﴿وهو الذي جَعلَ لكمُ الليلَ لباساً والنومَ سُباتاً وجَعلَ النهارَ نُشوراً﴾ [الفرقان: 47]
- ﴿ووقَعَ القولُ عليهم بما ظَلَموا﴾ [النمل: 85]
- ﴿جَعلنا الليلَ ليَسكُنوا فيه والنهارَ مُبْصِراً﴾ [النمل: 86]
- ﴿لولا أن رَبَطْنا على قلبِها﴾ [القَصص: 10]
- ﴿مَثَلُ الذين اتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ كمَثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذَتْ بيتاً وإنّ أوهَنَ البيوتِ لبيتُ العَنكَبوت﴾ [العنكبوت: 41]
- ﴿ضَربَ لكمْ مَثَلاً مِن أنفُسِكم هل لكمْ مِن ما مَلَكتْ أيمانُكم مِن شُركاءَ في ما رزقناكُمْ فأنتمْ فيه سَواءٌ تخافونهمْ كخِيفتِكمْ أنفُسَكم﴾ [الروم: 28]
- ﴿فإنّكَ لا تُسْمِعُ المَوتَى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوا مُدْبِرين﴾ [الروم: 52]

- ﴿ويومَ تقومُ الساعةُ يُقسِمُ المجرمونَ ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ﴾ [الإسراء: 55]
- ﴿يا بُنَيَّ إنّها إنْ تَكُ مِثقالَ حبّةٍ مِن خَردلٍ فتكُنْ في صخرةٍ أو في السمواتِ أو في الأرضِ يأْتِ بها اللهُ﴾ [لقمان: 16]
- ﴿ومَنْ يُسْلِمْ وجهَه إلى اللهِ وهو مُحسِنٌ فقدِ استمسَكَ بالعُروةِ الوُثْقى﴾ [لقمان: 22]
- ﴿ولو أنّ ما في الأرضِ مِن شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ مِن بَعدِهِ سبعةُ أبحرٍ ما نَفِدَتْ كلِماتُ الله﴾ [لقمان: 27]
- ﴿أفرأيتَ مَنِ اتَّخذَ إلهَه هواه﴾ [الجاثية: 23]
- ﴿ولا يَغْتَبْ بعضُكم بَعضاً أيُحِبُّ أحدُكمْ أنْ يأكلَ لحمَ أخيه مَيْتاً﴾ [الحُجرات: 12]
- ﴿ونحن أقربُ إليه من حَبلِ الوريد﴾ [ق: 16]
- ﴿ولا يَأتِينَ ببُهتانٍ يفتَرِينَهُ بينَ أيدِيْهِنَّ وأرجُلِهِنّ﴾ [الممتحنة: 12]
- ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثمّ لم يَحمِلوها كمَثَل الحمارِ يحملُ أسفاراً﴾ [الجمعة: 5]
- ﴿كأنّهم خُشُبٌ مسنَّدةٌ يَحسَبون كلَّ صيحةٍ عليهم﴾ [المنافقون: 4]
- ﴿إذا أُلقُوا فيها سَمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ [المُلك: 7]
- ﴿تكادُ تَمَيّزُ من الغَيظ﴾ [المُلْك: 8]
- ﴿هو الذي جَعل لكمُ الأرضَ ذَلولاً فامشُوا في مناكبِها﴾ [المُلك: 15]
- ﴿فطاف عليها طائفٌ من ربِّكَ وهم نائمون. فأصبحتْ كالصريم﴾ [القلم: 19 - 20]
- ﴿فترى القومَ فيها صَرعَى كأنّهمْ أعجازُ نخلٍ خاوية﴾ [الحاقّة: 7]
- ﴿يومَ يَخرُجون منَ الأجداثِ سِراعاً كأنّهمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضون﴾ [المعارج: 43]
- ﴿واللهُ أنْبَتَكمْ من الأرضِ نباتاً﴾ [نوح: 16]
- ﴿واللهُ جَعلَ لكمُ الأرضَ بِساطاً﴾ [نوح: 19]
- ﴿وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّمَ حَطباً﴾ [الجنّ: 15]
- ﴿إنّ ناشئةَ الليلِ هي أشَدُّ وَطْأً وأقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزّمّل: 6]

- ﴿وأقرِضوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [المزّمّل: 20]
- ﴿إنّا نخافُ مِن ربِّنا يوماً عَبوساً قَمْطَريراً﴾ [الإنسان: 10]
- ﴿ويطوفُ عليهم وِلدانٌ مُخلَّدون إذا رأيتَهمْ حسِبْتَهمْ لؤلؤاً منثوراً﴾ [الإنسان: 19]
- ﴿ألم نجعلِ الأرضَ مِهاداً. والجبالَ أوتاداً﴾ [النبأ: 6 -7]
- ﴿فصَبَّ عليهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذاب﴾ [الفجر: 13]
- ﴿يومَ يكونُ الناسُ كالفَراشِ المبثوث﴾ [القارعة: 4]
- ﴿وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفوش﴾ [القارعة: 5]
- ﴿فجعلَهمْ كعصفٍ مأكول﴾ [الفيل: 5]

وكثيراً ما وقف البلاغيّون حائرين وهم يرون إلى هذا الخزّان العجيب من الصور وقد تجاوز حدود نظريّاتهم التي قبسوا معظمها عن أرسطو، ولذلك تجد الاستشهاد بالشعر في كتبهم البلاغيّة يطغى على الاستشهاد بالآيات، لأنّهم وجدوا فيه ما يناسب مقاييسهم الأرسطوطاليّة، ولم يجدوا ذلك في الآيات.

بل إنّ حجم الفنون البيانيّة، أو البديعيّة كما يطلقون عليها أحياناً، كان وحده فوق ما اعتادوه في أيّ نوعٍ من أنواع الأدب، شعراً أو نثراً، حتى كانوا يكتشفون في الآية الواحدة عشرات الفنون. واسمع ما يقوله ابن أبي الأصبع - كما يروي السيوطي - في شأن آيةٍ واحدة:

> ولم أرَ في الكلام مثل قوله تعالى ﴿يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ ويا سماءُ أَقْلِعي..﴾ [هود: 44] فإنّ فيها عشرين ضرباً من البديع وهي سبعَ عشرة لفظة[1].

بناءٌ جديدٌ للصورة القرآنيّة:

ولم تتوقّف الصور القرآنيّة عند حدّ الكثافة والتنوّع بل تجاوزته إلى نوعٍ من الصور لا ينضوي تحت قواعد البلاغيّين التقليديّة التي اعتادت أن تقسّم

(1) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص187.

الصورة البيانيّة إلى مجرّد مشبَّهٍ ومشبَّهٍ به وأداة تشبيهٍ ووجه شبه، ثمّ تتفرّع الصورة عندهم إلى أبوابٍ وتصنيفاتٍ عديدةٍ، بحسب حذفِ أو ذِكرِ واحدٍ أو أكثر من هذه العناصر الأربعة.

لقد سبق أن أكّدتُ في كتاب "الصورة بين البلاغة والنقد" حقيقةً محبطةً في علومنا البلاغيّة فقلت:

> إنّ التراث العربيّ عرف كثيراً من الصور الرائعة التي لا تخضع لقواعد البلاغيّين، ولكنّ هؤلاء تجاهلوها مكتفين من صور التراث بما استطاعوا إخضاعه لتقسيماتهم وتفريعاتهم الموضوعة، فكانت النتيجة إلغاء أكثر الصور الأدبيّة طرافةً وإبداعاً، ولا سيّما صور القرآن الكريم، معجزة العربيّة الكبرى.
> والقرآن الكريم كان مصدراً ثرّاً لمثل هذه الصور، لم يستطع البلاغيّون الإحاطةَ بفتوحاته في هذا المجال، مثلما عجز النحويّون عن الإحاطة بفتوحاته النحويّة واللغويّة، فظلّت بعيدةً عن متناول دراساتهم، لا لشيءٍ إلّا لأنّهم لم يجدوا في تقسيماتهم المنطقيّة التعميميّة ما يتّسع لخصوصيّات القرآن الرفيعة، فبقيت هذه الخصوصيّات بمنأىً عن أيديهم وعن قواعدهم الصارمة.
> فما القاعدة البلاغيّة التي يمكن أن تلمّ بهذه الصورة القرآنيّة وهي تمثّل لنا المنافقين الخائفين من الجهاد وقد اندفعت أرجلهم بقوّةٍ وراء ظهورهم هاربين إلى أوّل ملجأ يحميهم من القتل: ﴿لو يجدون ملجأً أو مَغاراتٍ أو مُدَّخَلاً لَولَّوا إليه وهم يَجمَحون﴾ [التوبة: 57]. إنّ قواعدنا البلاغيّة لن تعثر في هذه الآية على مشبَّهٍ أو مشبّهٍ به، ولن تجد فيها أيّة علاقةٍ مجازيّةٍ تربط بين كلماتها، وستقف عاجزةً عن اكتشاف البلاغة القرآنيّة في كلمة (مُدَّخَلاً) الموحية المتفرّدة، وعن قياس الصورة التجسيميّة المتحرّكة للمنافقين وهم في ذروة خوفهم "يولّون جامحين" نحو أقرب وكرٍ يختبئون فيه.
> ومثلها أيضاً صورة نبيّ الله موسى وهو يولّي مدبراً لا يلتفت وراءه، بعد أن خُيّل إليه أنّ عصاه قد انقلبت إلى حيّةٍ كبيرة: ﴿وأن ألْقِ

عصاك، فلمّا رآها تهتزُّ كأنّها جانٌّ ولّى مُدْبِراً ولم يُعقِّب﴾ [القَصص: 31]. إنّها صورةٌ حركيّةٌ دراميّةٌ حيّة، رغم أنّها تخلو من العناصر التقليديّة التي تقوم عليها قواعد البلاغيّين العرب[2] .

ولو جرّبنا إخضاع صور القرآن الكريم لقواعدنا البلاغيّة التقليديّة لعجزنا عن ذلك في كثيرٍ منها. فأيّة قاعدةٍ يمكن أن تساعدنا في تحليل مثل هذه الصور القرآنيّة المكثّفة:

- ﴿ولكمْ في القِصاصِ حياةٌ﴾ [البقرة: 179]
- ﴿ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ﴾ [الحجّ: 73]
- ﴿وأفئدتُهم هَواءٌ﴾ [إبراهيم: 43]
- ﴿ويَقذِفون بالغَيبِ مِن مكانٍ بعيدٍ﴾ [سبأ: 53]

الصورة ذات الأبعاد المتعدّدة:

وبنزول القرآن عرف العرب أوّل مرّةٍ الصورة ذات الأبعاد المتعدّدة، ولم يعد أمام البلاغيّين من خيار، عندما بدأوا يضعون للبلاغة العربيّة قوانينها ويحلّلون أجزاء الصور البيانيّة فيها، إلّا غضُّ النظر عن تلك الصور القرآنيّة الجديدة، وتجاهُلُها في دراستهم لأنّها لا تستجيب لقواعدهم، أو بالأحرى لأنّ قواعدهم البشريّة المحدودة لم تستطع الإحاطة بأبعادها واستيعابَها.

والأخطر من هذا أنّ منّ أراد أن ينال من الإسلام ومن القرآن وجد في غرابة الصور القرآنيّة وخروجها عن المقاييس التقليديّة ما ظنّ أنّه ثغرةٌ ينفُذ منها إلى عقيدة المسلمين، كما فعل ابن الراوندي، المتزندق المشهور، وهو الذي يتغنّى أصحابه اليوم بعقليّته التجديديّة وتجاوزِه بأفكاره للعصر الذي عاش فيه، وذلك حين علّق على قوله تعالى: ﴿فأذاقها اللهُ لباسَ الجوع والخوف﴾ [النحل: 112] فقال لابن الأعرابيّ، إمام اللغة والأدب: "هل يُذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابيّ: لا بأس أيّها النَسناس، هَبْ أنّ محمّداً ما كان نبيّاً،

(2) ساعي، أحمد بسام. **الصورة بين البلاغة والنقد**، مرجع سابق، ص21 - 22.

أما كان عربيّاً؟ كأنّه طَعنَ في الآية بأنّ المناسب أن يُقال: فكساها اللهُ لباسَ الجوع، أو: فأذاقها اللهُ طعمَ الجوع"[3].

أرأيت كيف أنّ خيال العرب، حتّى عند أولئك الذين تأخّروا قروناً بعد عصر الوحي، ومن نُسب منهم إلى الحداثة والثورة والتجديد خاصّةً، لم يكن حتّى ذلك الحين مهيّأً للصدمة البلاغيّة الكبيرة التي أحدثها القرآن في الصورة البيانيّة؟ فأدبهم عامّةً، وشعرهم خاصّةً، لم يعرف للصورة أكثرَ من بُعدٍ واحدٍ، أو جسرٍ واحدٍ، يصل بين طرفين اثنين لا ثالث لهما: المشبّه والمشبّه به؟

إنّهم لم يعرفوا من قبلُ كيف يتعاملون مع صورةٍ ثلاثيّة الأطراف، كآية سورة (النحل)، فيَعبُرون بين الأطراف الثلاثة على جسرين متواليين، أو يقفزون قفزتين واحدةً بعد أخرى:

1 - الجوع والخوف هما كاللباس المحيط بالجسم من كلّ الجهات،

2 - والإحساس بهذا اللباس الصعب يشبه الإحساس بمَذاق الطعام المرّ.

وهكذا يصبح الجوع والخوف لباساً، واللباسُ طعاماً يُذاق أو يؤكَل.

الصورة المتحرّكة:

وتجاوزَ القرآن الكريم بالعرب أيضاً الصورة التقليديّة الثابتة إلى الصورة المتحرّكة، فلم تعد العدسة البيانيّة آلة تصويرٍ قديمةً بصورٍ ذاتِ لونين: أبيض وأسود، فتكتفي بالتقاط مناظر مؤلّفةٍ من مشبّهٍ ومشبّهٍ به. إنّ الآلة الجديدة تتحرّك بنا من مسرحٍ إلى آخر، لتضيف إلى المشهد مزيداً من العناصر والألوان والحركة والحياة.

فالصورة التي تشبّه أعمال الكفّار بالسراب لم تتوقّف عند هذا التشبيه، بل تتحرّك بالسراب وتتحرّك معه بالظامئ وهو يبحث فيه جاهداً عن الماء، فإذا انتهى إليه لم يجد هنالك إلّا الله، أو يجد بالأحرى مصيرَه البائس، وقد

(3) الشّوكانيّ، محمّد بن عليّ. **فتح القدير**، مرجع سابق، ج3، ص200.

كان يظنّ أنّ عمله سيغنيه عن الإيمان بالله:

- ﴿والذين كفروا أعمالُهم كسَرابٍ بقِيعةٍ يحسَبُه الظمآنُ ماءً حتّى إذا جاء لم يجدْه شيئاً ووجد اللهَ عنده فوفّاه حسابَه﴾ [النور: 39]

ولا تتوقّف الصورة القرآنيّة الأخرى عند تشبيه الليل بوعاءٍ يحتوي النهار، أو عند تشبيه النهار بوعاءٍ يحتوي الليل، بل تتحرّك بكلٍّ منهما حركةً إيلاجيّةً التفافيّةً تصوّر التداخل المستمرّ والمتدرّج للّيل والنهار في تباعدهما وتقاربهما بين الشروق والغروب، وفي تطاولهما وتقاصرهما بين الشتاء والصيف:

- ﴿يولجُ الليلَ في النهارِ ويولجُ النهارَ في الليل﴾ [لقمان: 29]

وهكذا في الصور القرآنيّة المتحرّكة الأخرى:

- ﴿مثَلُهم كمَثَلِ الذي استوقدَ ناراً فلمّا أضاءتْ ما حولَه ذهبَ اللهُ بنُورِهم وتركهمْ في ظُلُماتٍ لا يُبصِرون﴾ [البقرة: 17]
- ﴿أو كصيِّبٍ من السماءِ فيه ظُلُماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعَهم في آذانِهم من الصواعقِ حَذَرَ الموت﴾ [البقرة: 19]
- ﴿وكُلوا واشرَبوا حتّى يتبيّنَ لكمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسوَدِ من الفجر﴾ [البقرة: 187]
- ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تُبطِلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كالذي يُنفِقُ مالَه رِئاءَ الناسِ ولا يؤمنُ بالله واليومِ الآخِرِ فمَثَلُه كمَثَلِ صفْوانٍ عليه ترابٌ فأصابَه وابِلٌ فتركَه صَلْداً﴾ [البقرة: 264]
- ﴿ومَثَلُ الذين يُنفِقون أموالَهمُ ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ وتثبيتاً مِن أنفُسِهم كمَثَلِ جَنّةٍ بربوةٍ أصابَها وابلٌ فآتَتْ أُكُلَها ضِعفَين فإنْ لم يُصِبْها وابلٌ فطَلٌّ﴾ [البقرة: 265]
- ﴿أيودُّ أحدُكم أن يكونَ له جَنّةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجري مِن تحتِها الأنهارُ له فيها مِن كلِّ الثمراتِ وأصابَه الكِبَرُ وله ذُرّيّةٌ ضعفاءُ فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقتْ﴾ [البقرة: 266]
- ﴿واقعُدوا لهم كلّ مَرصَد﴾ [التوبة: 5]
- ﴿يُريدون أن يُطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهمْ﴾ [التوبة: 32]

- ﴿والذين يَدْعُون مِن دونِه لا يستجيبون لهم بشيءٍ إلّا كباسطِ كفَّيْه إلى الماءِ ليَبْلُغَ فاهُ وما هو ببالِغِه﴾ [الرعد: 14]
- ﴿أعمالُهمْ كرمادٍ اشتدّت به الريحُ في يومٍ عاصفٍ﴾ [إبراهيم: 18]
- ﴿ضَربَ اللهُ مَثَلاً كلِمةً طيّبةً كشجرةٍ طيّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفَرعُها في السماء تُؤتي أُكُلَها كلَّ حِينٍ بإذْنِ ربِّها﴾ [إبراهيم: 24 - 25]
- ﴿ولا تمْشِ في الأرضِ مرَحاً إنّكَ لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلُغَ الجبالَ طولاً﴾ [الإسراء: 37]
- ﴿قُلْ لو كان البحرُ مِداداً لكلماتِ ربّي لنَفِدَ البحرُ قبلَ أنْ تَنفَدَ كلماتُ ربّي ولو جئنا بمِثْلِه مَدَداً﴾ [الكهف: 109]
- ﴿بل نَقذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيَدمَغُه﴾ [الأنبياء: 18]
- ﴿ومَن يُشرِكْ باللهِ فكأنّما خَرَّ مِن السماءِ فتَخْطَفُه الطيرُ أو تَهوي به الريحُ في مكانٍ سحيقٍ﴾ [الحجّ: 31]
- ﴿يَخافون يوماً تتقلّبُ فيه القلوبُ والأبصار﴾ [النور: 37]
- ﴿أو كظُلُماتٍ في بحرٍ لُجّيٍّ يَغْشاهُ مَوجٌ مِن فوقِه موجٌ مِن فوقه سَحابٌ ظُلُماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ إذا أَخرَجَ يدَه لم يَكَدْ يراها﴾ [النور: 40]
- ﴿اللهُ الذي خَلَقَكمْ مِن ضَعْفٍ ثم جَعَلَ مِن بَعدِ ضَعفٍ قوّةً ثمّ جَعلَ مِن بَعدِ قوّةٍ ضَعْفاً وشَيبةً﴾ [الروم: 54]
- ﴿وتَرى الجبالَ تَحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السَحاب﴾ [النمل: 88]
- ﴿تتجافَى جُنوبُهم عن المَضاجِعِ يَدْعُون ربَّهمْ خَوفاً وطمَعاً﴾ [السجدة: 16]
- ﴿كمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفّارَ نباتُه ثمّ يَهيجُ فتراهُ مُصفرّاً ثمّ يكونُ حُطاماً﴾ [الحديد: 20]
- ﴿لو أنزَلْنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً متصدِّعاً مِن خَشيةِ الله﴾ [الحشر: 22]
- ﴿يومَ يَخرجون من الأجداثِ سِراعاً كأنّهم إلى نُصُبٍ يُوفِضون﴾ [المعارج: 43]

- ﴿فما لَهم عن التذكرةِ مُعْرِضين. كأنّهم حُمُرٌ مستنفِرة. فرّت مِن قَسْوَرة﴾ [المدّثّر: 49 - 51]

توليد الصورة من المعنى الجديد للفعل:

وكثيراً ما تكون وسيلة القرآن إلى الصورة الجديدة هي تغيير معنى الفعل المستخدَم وإعطاءه معنىً جديداً، كما نرى حين يأخذ الفعل (يشتري) معنى (يبدّل) لتتكوّن لنا الصورة القرآنيّة التي يشبّه فيها تعالى الدنيا بسلعةٍ تُشترى:

- ﴿أولئك الذين اشترَوا الحياةَ الدنيا بالآخرة﴾ [البقرة: 86]

وهكذا في قوله تعالى:

- ﴿والذين يمكرون السيّئاتِ لهم عذابٌ شديد﴾ [فاطر: 10]

فأعطى الفعل (يمكر) معنى (يرتكب) ولكن (بمكرٍ). ومثله قوله تعالى:

- ﴿إن تُقرِضوا اللهَ قرضاً حَسناً يُضاعفْه لكم﴾ [التغابن: 17]

فأعطى الفعل (يُقرض) معنى (يعمل) أو (يقدّم) ولكن (منتظراً الأجر). وكذلك قوله تعالى:

- ﴿(وذُلِّلتْ قُطوفُها تذليلا)﴾ [الإنسان: 14]

فأعطى الفعل (ذلّل) معنى(قرّب) ولكن (مع سهولة القطاف). .

الصورة الافتراضيّة:

ومن أهمّ ما أضافه القرآن إلى المعجم البيانيّ ما يمكن أن أطلق عليه اسم (الصور الافتراضيّة). إنّها ذلك النوع من الصور التي تترك للخيال الإنسانيّ أن يكمّلها، لأنّها تضع المشبّه أمام ما لا يمكن أن تدركه حواسّنا البشريّة العاديّة من المشبّهات به، أو تشبّه ما هو معروفٌ بما ليس معروفاً أو مُشاهَداً، كتلك الصورة التي استأثرت طبيعتها باهتمام البلاغيّين القدماء، وقد شبِّه فيها تعالى ثمارَ شجرة الزقّوم في جهنّم برؤوس الشياطين:

- ﴿طَلْعُها كأنّه رؤوسُ الشياطين﴾ [الصافّات: 65]

فلأنّ أحدنا لم ير الشياطين قطّ، ولا رؤوسها، فمن شأن هذه الصورة أن تطلق لخياله العنان في افتراض الصورة التي تجسّم بشاعة تلك الشجرة وقد أخذت شكل أبغض مخلوقٍ على وجه الأرض. إنّها ذلك النوع من الصور الذي يهدم الحواجزَ والحدود التي تضعها عادةً الصورةُ العقليّة المنطقيّة المحدودة في طريق الخيال، ليجد نفسه أمام آفاقٍ لا حدود لامتدادها من التصوّرات والألوان، كأمثال هذه الصور:

- ﴿لا تدركُه الأبصارُ وهو يُدركُ الأبصارَ﴾ [الأنعام: 103]
- ﴿يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ﴾ [إبراهيم: 48]
- ﴿وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسى فارغاً﴾ [القَصص: 10]
- ﴿ولو أنّما في الأرضِ مِن شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّه مِن بَعدِه سبعةُ أبحُرٍ ما نَفِدَتْ كلِماتُ الله﴾ [لقمان: 27]
- ﴿والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامةِ والسمواتُ مَطوِيّاتٌ بيمينِه﴾ [الزُمَر: 67]
- ﴿فإذا انشقّت السماءُ فكانت وردةً كالدِهان﴾ [الرحمن: 37]
- ﴿نُورُهم يسعى بين أيديهم وبأيمانِهم﴾ [التحريم: 8]
- ﴿ولقد زيّنّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ [المُلك: 5]
- ﴿وإنْ يكادُ الذين كفروا لَيُزْلِقونكَ بأبصارِهم﴾ [القلم: 51]
- ﴿من اللهِ ذي المعارج﴾ [المعارج: 3]
- ﴿إنّها ترمي بشَرَرٍ كالقَصْر. كأنّه جِمالَةٌ صُفْر﴾ [المرسَلات: 32 - 33]
- ﴿والصبحِ إذا تنفَّس﴾ [التكوير: 18]

أنواع الصور في سورة (المدّثر):

ولو عدنا إلى سورة (المُدّثّر)، وقد سبق أن طبّقنا عليها دراستنا عن الألفاظ في الفصل السابق، لوجدنا فيها من كلّ الأنواع المذكورة للصور، بعلاقاتها المختلفة، مع تأكيدنا على جِدّة هذه الصور وعدم معرفة العرب لها

قبل الإسلام، سواءٌ ما قام منها على الأبعاد المعروفة للصورة قبل الإسلام، أو ما خرج عن هذه الأبعاد.

وعلينا أن ننبّه إلى أنّ النوع البيانيّ الذي سنعرّف هذه الصور به ونذكره إلى جانب كلّ صورة ليس هو بالضرورة النوع النهائيّ، أو النوع الوحيد، الذي تنتمي إليه، ما دام كثيرٌ من هذه الصور خارجاً عن الحدود المتعارف عليها للأنواع البيانيّة التي كرّستها علومُ البلاغة العربيّة.

ويمكن أن نحصي في (المدّثّر) أكثر هذه الصور وضوحاً لنا، وهي لا تقلّ عن 31 صورةً تتكوّن من مزيجٍ من الألفاظ والتعبيرات والعلاقات البيانيّة الجديدة التي نسردها فيما يلي:

- **المدّثّر** (رمزٌ أو كنايةٌ عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم)
- **وثيابَك فطهِّر** (مجاز: أراد بالثياب نفسَ صاحبها)
- **والرُجزَ فاهجُر** (مجاز: أراد بالرُجز - وهو العذاب - الأصنام التي تؤدّي إليه)
- **نُقِر في الناقور** (كناية: إشارةٌ اصطلاحيّةٌ إلى النفخ في الصُّوْر ومن ثمّ قيام القيامة)
- **ذَرْني ومن خلقتُ** (مجاز: فعل الأمر هنا موجَّهٌ، أو قد يكون موجّهاً، من الآمر إلى المأمور الذي هو الآمر نفسه، أي الله، وقد جلّ أن يأمره أو يذرَه أحدٌ)
- **مالاً ممدوداً** (مجاز: وصف المال بالامتداد، فكأنّه شيءٌ متطاول الشكل)
- **ومهّدتُ له تمهيداً** (كنايةٌ أو رمز: إشارةٌ إلى معنى الاختبار بالاستدراج)
- **كان لآياتِنا عنيداً** (كنايةٌ أو مجاز: ذكر العناد وأراد التكذيب والكفر)
- **سأُرْهقُه صَعوداً** (كنايةٌ أو رمزٌ عن شدّة العذاب من غير تحديد طبيعته)
- **أدبرَ واستكبر** (كنّى بالإدبار عن الإنكار)
- **سأُصليهِ سَقَر** (رمز: جِدّة المصطلَح "سقر" تشحنه بمعانٍ غير محدّدةٍ من العذاب)

- **لا تُبقي ولا تَذَر** (كنايةٌ عن شدّة النار ووطأة العذاب)
- **لوّاحةٌ للبَشَر** (كنايةٌ عن شدّة الإحراق)
- **كفَروا - الكافرون** (صورتان بيانيّتان: شبّه الامتناع عن الإيمان بغطاءٍ يغطّي العقل، أو بالجحود)
- **في قلوبِهم مرضٌ** (صورةٌ بيانيّة: شبّه الشكّ وضعف الإيمان بالمرض في القلب)
- **يُضِلُّ اللهُ من يشاء** (صورةٌ بيانيّة: شبّه الكفر بالضياع)
- **يَهدي من يشاء** (صورةٌ بيانيّة: شبّه المؤمن بالمسافر أو المتنقّل الذي يعرف طريقه، أو شبّه الإيمان بالمعرفة ووضوح الطريق)
- **والصبحِ إذا أسفَر** (صورة بيانيّة: شبّه الفجر بإنسانٍ يكشف غطاء الليل عن نفسه، أو عن الحياة)
- **أن يتقدّم أو يتأخّر** (كنايةٌ عن الإيمان أو الكفر)
- **كلُّ نفْسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ** (صورةٌ بيانيّة: شبّه الإنسان بسجينٍ وراء قضبان أعماله)
- **أصحابَ اليمين** (كنايةٌ عن أهل الجنّة)
- **نخوضُ مع الخائضين** (صورةٌ بيانيّة: شبّه التحدّث في حقّ الله بالسقوط في مخاضة)
- **يوم الدّين** (اصطلاح: رمَزَ به إلى القيامة والحساب)
- **أتانا اليقين** (اصطلاح: رمَزَ إلى الموت أو الحساب باليقين، لحتميّة وقوعهما)
- **كأنّهمْ حُمُرٌ مستنفِرة. فرّت من قَسْوَرة** (صورتان بيانيّتان: شبّههم بالحمير، ثمّ شبّه إعراضهم عن الإيمان بالحيوانات الفارّة من الأسُود أو الرّماة)
- **الآخرة** (رمزٌ أو كناية: مصطلحٌ إسلاميٌّ جديدٌ للحياة بعد الموت)
- **التقوى** (رمزٌ أو كناية: مصطلحٌ يرمز للخوف من عذاب الله فكأنّما يُتّقى بالعمل الصالح)

- **هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفِرة** (صورتان بيانيّتان: ضمّن "أهلُ" معنى "الصاحب" أو "المَرجِع").

ومن المهمّ أن أؤكّد هنا من جديدٍ أنّنا أمام نوعٍ من الصور كثيراً ما يتجاوز الحدود المتعارف عليها للصورة البيانيّة، فبعضها أكثر من مجرّد صورةٍ عاديّة، ومن أجل هذا لم أحاول تحليل كلٍّ منها التحليل البيانيّ المعتاد في دراساتنا البلاغيّة، إذ ليس لديّ إلّا طرائق البلاغيّين المعهودة، وليس في تلك الطرائق ما يكفي من القواعد لدراسة كثيرٍ من هذه الصور وتحليلها، ثم إنّه، كما وعدت دائماً، لا موضع للتحليلات البلاغيّة والنحويّة المفصّلة في مثل هذا البحث، وليست في الأصل هدفاً من أهدافه.

ومن الواضح أنّني اكتفيت، على الأغلب، باقتراح معنىً واحدٍ لكلّ صورةٍ أو تعبير، وذلك تجنّباً للتفصيل الذي ليس هو غرضنا في النهاية، وحذراً من الانزلاق إلى ما لا تُحمد عقباه من محاولة التوفيق الخطرة بين هذه المعاني وفنونها التصويريّة بأبعادها الجديدة، من جهة، والاصطلاحات والقواعد البلاغيّة التقليديّة للصورة الفنّية، من جهةٍ أخرى. فحين يطرح المفسّرون لبعضها أكثر من معنىً فإنّهم يتيحون لنا، بذلك، أكثر من طريقةٍ واحدةٍ لطرح الحالة البيانيّة أو البلاغيّة لها.

وأؤكّد من جديد أنّ الأنواع البيانيّة التي اقترحتها لهذه الصور ليست نهائيّةً، وليست بالضرورة هي النوع الذي اخترته لكلّ صورة، ما دام كثيرٌ من هذه الصور خارجاً عن الحدود التقليديّة التي تعارف عليها البلاغيّون في مؤلّفاتهم.

وسوف نظلّ في مسيس الحاجة إلى إعادة النظر في تلك القواعد، أو إفراد القرآن الكريم بدراساتٍ بلاغيّةٍ تخرج لنا بقواعد خاصّةٍ به، معتمدين في ذلك على الأمّهات من المؤلّفات القديمة الضخمة التي وُضعت في الإعجاز البلاغي للقرآن، التي وفّرت لنا موادّ أوّليّةً دسمةً وثمينةً يمكن أن نبني قواعدنا الجديدة عليها.